مقابلة

جاد الحاج في حوار حول روايته الجديدة:

«الاخضر واليابس» اعادة بناء للوطن المفقود

● نجيب محفوظ ينتمي الى القرن الـ ١٩ ● تعلّمت القصة والرواية من جدة أبي
● «الاخضر واليابس» رؤية للفارق الكبير بين الماضي والمستقبل

جاد الحاج شاعر لبناني اقتحم عالم الرواية بشاعرية مكثفة ودفق عاطفي فضّاح. وكتب باكورته الروائية «الاخضر واليابس» بعد ديوانه «قطار الصدفة».

هاجر منذ عشر سنوات هرباً من براثن الحرب الاهلية. وتنقل في اكثر من عاصمة اوروبية واستقر اخيراً في اوستراليا وما زال يتابع تطوافه بحثا عن الكلمة البكر.

«الاخضر واليابس» رواية جاد الحاج تغوص في الحرب، تعرض التفاصيل، تتخذ موقفاً، وتعلن رفضاً واضحاً لكل ما حدث ويحدث وحولها كان لنا معه حوار سألناه في مستهله:

□ لماذا اتجه الشاعر جاد الحاج الى الرواية؟

ـ منذ الاساس كنت مغرماً بالقصة او بالحكاية، بناء على طفولة كانت محتشدة بالمسنين الذين اخبروني قصصاً قصيرة.

ربيت في منزل فيه ثلاث جدات فضلاً عن جدي. وطوال الوقت كنت استمع بشغف الى اخبارهم وقصصهم، خصوصاً جدة ابي التي عاشت اكثر من مئة سنة وكانت تحمل في ذاكرتها تراثاً من قصص السندباد والف ليلة وليلة والشاطر حسن، وكانت بالنسبة إليّ «تلفزيون السهرات».

القصة شيء موجود فيّ منذ البدء. وعندما احسست وانا في الثانية عشرة من عمري بالميل الى الكتابة، كان ذلك الميل عنيفاً جداً يشبه الحمى، اعتقدوا اني مريض لانني كنت اصاب بحمى حقيقية. حيث ترتفع حرارتي وابكي بعنف رافضاً المدرسة وكل نظام من انظمة الحياة بما فيها العائلة.

عندما تبتعد ترى الوطن بعين الباشق

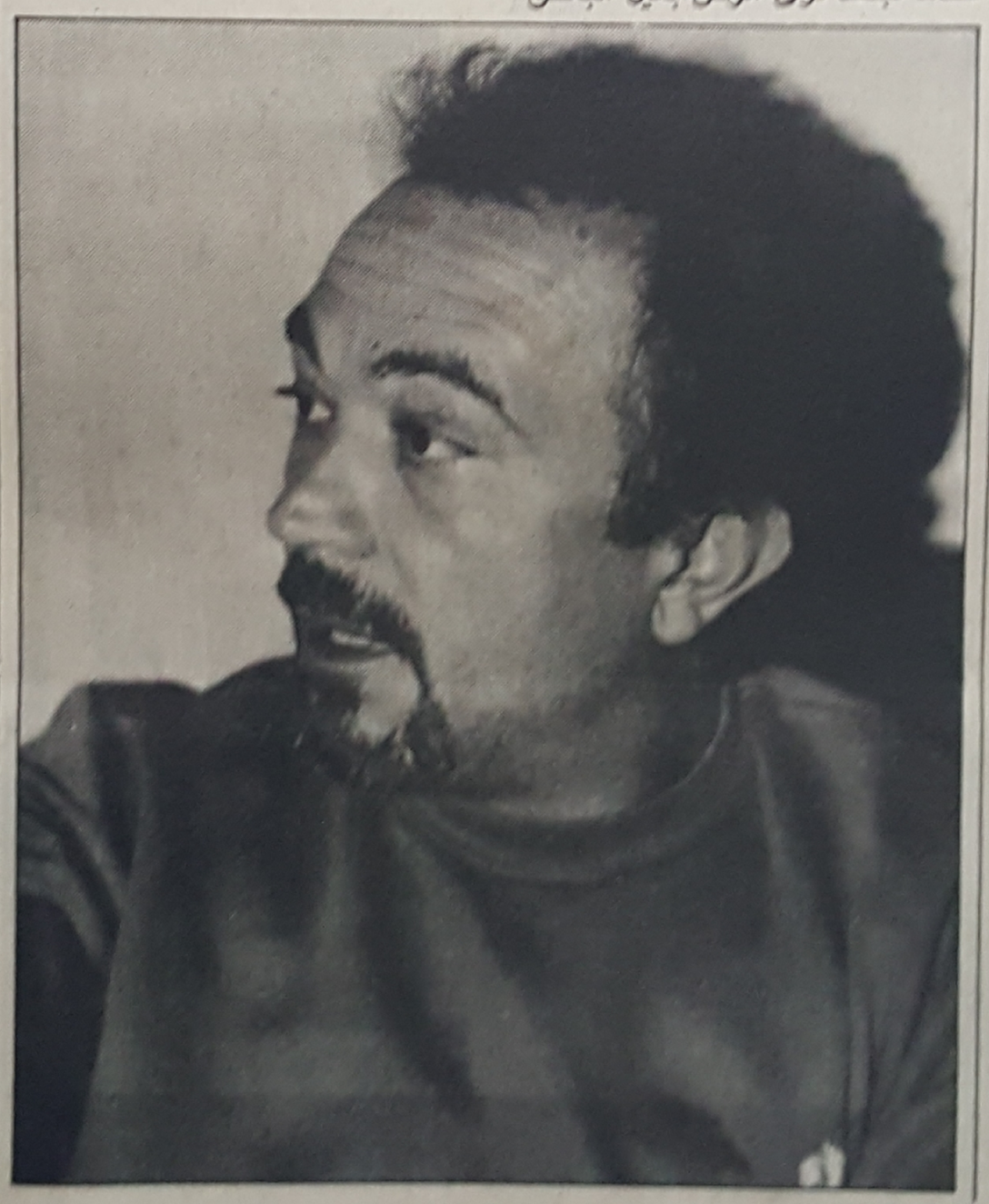

فوجدت الشعر نوعاً من التعبير الاسرع والاكثر اختزاناً لتلك العاطفة او لإزالة تلك الحمى. انما بقيت قصائدي نوعاً من الاخبار. كنت ابوح في كتابتي اكثر مما اكتب شعراً.. قصائد بوحية.

عندما كتبت «قطار الصدفة» رايتني اخلط القصة بالشعر. فكان النثر يتطور بشكل تصاعدي الى ان يفرز شعراً، ثم اعود الى القصة.

تربيتي المدرسية لم تكن مستقيمة واكاديمية ولذا لم اكتشف الاسلوب المناسب من اساليب الكتابة. الى ان تدربت اكثر فاكثر على التعبير، عبر الصحافة وبقية اساليب الاعلام كالاذاعة والتلفزيون. ثم هناك مسالة البعد. الهجرة جعلت الوطن بالنسبة إلي حكاية. لم يعد الانفعال مباشرا وقوياً كما لو انك موجود على الساحة، فاصبحت قصص الوطن وذكرياته واحواله حكايات.

كنت خلال اسفاري اسجل ما يخطر لي، الى ان تراكمت كل هذه الاشياء، فوجدت اني بحاجة الى اعادة توليدها، والى تصوير ما اراه وطناً. تلك كانت النواة الاساسية للرواية. اي انا اردت ان اعيد بناء عالم فقدته، لكنه بقي في ذاكرتي لاشفي عقلي من الخراب، ومن حالة الدمار كان عليّ ان اعيد بناء عالمي المفقود، «الاخضر واليابس» هي اعادة بناء للوطن الذي خسرناه.

لم أخسر الشعر

□ هل كان الشعر عاجزاً عن التعبير عن تلك المعاناة، أم أنك أردت ان تستقل وسيلة تعبير اخرى يكون مداها اوسع وارحب، لتقول ما تريد بحرية اكثر؟

ـ اعتقد ان المسالة لا علاقة لها بالارادة الوضعية المباشرة كما تتصور. هناك تفاعلات اساسية تتراكم مع الوقت. عندما تعمل في الصحافة اكثر من عشرين سنة تتعلم ان التعبير البسيط المباشر احياناً يصيب اكثر من التعبير المكثف، احياناً يهز عظامك خبر صغير في جريدة اكثر من قصيدة عظيمة. التقاء هذين العنصرين ادى اخيراً الى اكتشافي مسالة ان الشعر ليس فقط في القصيدة، الشعر موجود في الرواية ايضاً.

□ تقصد الشعرية؟

ـ نعم.. لذلك «الاخضر واليابس» مليئة بالشعر، ولكنه شعر ممارس

وموجود ضمن العالم المرسوم. وهناك كتّاب كثيرون وروائيون كثيرون انتقلوا من الشعر كشيء نظامي، أي من عالم القصيدة الى عالم الرواية دون ان يخسروا الشعر.

□لو دخلنا الى عالم الرواية لوجدنا ان شخصية «الدكتور» التي تجمع بين جميع الأطراف في القرية التي سميتها «وهدة» قد ماتت. هل سقوطها نتيجة للحالة التشاؤمية التي تعيشها او هل هو انتحار للأمل؟

- الدكتور يموت في الجزء الاول من الرواية. وفي الجزء الاول تسقط مع الحكيم الرموز الفولكلورية التي يمكن اعتبارها كمفاتيح لإسلوب الحياة اللبنانية في الريف. عندنا احترام للكبار، احترام للمشايخ، لكلمتهم، احترام للتراث، للمعرفة القديمة المتوارثة. هذا الاحترام سقط منذ بداية الحرب حيث لم يسمع الصغار كلمة الكبار، أي ان الماضي بكل تجاربه الغي. هناك حالة الغاء بين الماضي والحاضر. هذا هو الذي سقط وسقوط راجي عواد «الحكيم» وسقوط امه «خاتون» التي تمثل خرافة القرية، هما رمزان لانتهاء عالم وبداية عالم جديد.

المذابح كانت عبثية

□تتحدث في الرواية عن اربعة شباب يمثلون ميليشيا من ميليشيات الحرب. يحرسون الصيعة في ظل غياب الشباب الذين يتدربون على السلاح. هؤلاء ارادوا ان يبرروا وجودهم وبالتالي دورهم فما كان منهم الا ان قتلوا الكلاب بعدما شيّعوا انها مريضة وسيعكس مرضها على اهل القرية. القرية المجاورة اعتبرت اطلاق الرصاص ولو على الكلاب نوعاً من التحدي فردت. وهكذا كانت المعركة - الكارثة.

السؤال هو التالي: لماذا اعتمدت هذا السبب السطحي للمعركة، مقتل كلاب يؤدي الى نشوب حرب بين ضيعتين؟

واذا كانت الضيعتان ترمزان الى جهتين سياسيتين متنافرتين. فهل هذا يعني صورة عن تفاهة الجهات المتقاتلة وسخافتها، ام انك اردت ان تقول شيئاً آخر؟

- الاسباب والحواجز التي ادت الى مذابح كلاب وغير كلاب في لبنان، كانت في معظمها اقل من سخيفة، واقل من حقيرة، ولكن المذابح التي ادت الى ابادة قرى ونزوح جماعي كانت بعبثية وحقارة لا يمكن ان يستوعبها العقل البشري فنحن عشنا مئات السنين متجاورين ومتفاهمين حتى على خلافاتنا، لم يكن الامر طوباوياً، ولكنه كان امراً انسانياً قائماً. الامر الانساني يعني ان البشر يفهمون خلافاتهم ويستوعبونها ويعيشون من ضمنها. انا لا ارسم القرية اللبنانية كشيء طوباوي ولكني ارسمه كواقع كان يعيش وعاش مئات السنين ونفد. حتى في حالات المذابح الاساسية لم تكن العملية بهذه الوحشية التي وصلنا اليها.

تتفيهي للاسباب التي تجعل الحروب تحصل مقصود جداً، لان ما اسبغ من شعارات ومن كلمات طنانة على الاسباب التي ادت الى مذابح لم تكن الا كذبة كبيرة يعرفها اللبنانيون وتعرفها انت بالذات. كل ما ابتدع من كلام وشعارات كان كذباً، لان كل الشعارات لم تؤد الا الى تشريد اللبنانيين وتهديم بيوتهم والتفرقة بينهم وتصديع حياتهم ومستقبلهم. اين هي الشعارات؟ اين هي كل الشعارات في هذه الجهة او تلك.

البطل المضاد

□بطل روايتك «آدم عواد» يلاحظ انه رافض للحرب، لكنه في سياق الرواية ليس أكثر من شاهد. برأيك هل هذا الدور كافٍ لبطل له موقف مميز من قضية بهذه الخطورة؟

- انه البطل المضاد كما يقال في الرواية الحديثة أنا أزرع بطلاً لكي يؤدي دوراً بطولياً أو لكي يحتمل فوق احتمالات الانسان العادي بل أحمله وزر الانسان المثالي اي ما يتصف به اللبنانيون العاديون البسطاء الذين فرضت عليهم ظروف ما أو انجروا مضللين بظروف اخرى، ولكن اللبناني لو ترك ليختار اسلوب حياة فهو لا يختار العنف. ان اعنف ما يقوم به اللبناني بنظري هو صيد العصافير، في جميع الفصول.

آدم عواد لا يقتل العصافير ولا يأكل اللحم. إنه انسان مسالم مثل خضر نبوه الذي أسس حركة اللاعنف في لبنان.

□ولماذا الآن خضر نبوه؟

- شخص يعتبره الجميع «مهبولاً» ولكن «خضر» ليس كذلك، انه انسان مقتنع بأن العنف مسألة لا تؤدي إلا الى العنف.

لذلك كان آدم عواد شاهداً، الى ان كاد يكون شهيداً. في النهاية يساق الى الموت، الى المواجهة مع الموت. وهذه المواجهة كانت مصير معظم اللبنانيين في كل الجهات.

الشاهد هنا ليس شاهداً عن عجز ولكن عن ضرورة روايته لكي يرى ما يحصل للجميع.

□أنجزت أكثر «الأخضر واليابس» خارج لبنان لو كنت في لبنان لقلت ما قلته أم كنت عدّلت كثيراً من المواقف انطلاقاً من طبيعة المكان أو خضوعاً لضرورة المكان؟

- اعتقد ان البعد عن الساحة اعطاني رؤية شاملة، عندما تبتعد ترى الوطن كله بمنظار واحد كبير، كأنك تراه بعين الباشق وترى ما يحصل عليه كأنك تؤرخه وليس كأنك متورط به. فعدم التورط المباشر افادني لأستطيع ان اتورط بشكل افضل. فكتبت عن حرب السنتين اللتين عشتهما بشكل يومي ولم اكتب عن بقية الحرب إطلاقاً.

القارىء مكان البطل

□«آدم عواد» يُخطف في نهاية القصة.. الخاطفون يخيرونه بين أن يقتل أو يقتل. نلاحظ أنك لم توضح النهاية. لماذا هذا الاصرار على الغموض في بناء الموقف النهائي؟

- المهم هو طرح السؤال ووضع القارىء مكان البطل، لكي يطرح هو على نفسه السؤال ايضاً. الفن يسأل ويترك الاجابة مفتوحة.

أنا احمل القارىء مسؤولية. كلنا وصلنا الى هذه النقطة، فماذا يريد ان يفعل القارىء؟ ماذا تريد ان نفعل كلنا في هذا الوطن؟ هل نريد ان نقتل أو نموت؟

□كتاب الرواية في لبنان قلة. هل سيكرر جاد الحاج هذا الخطأ الجميل، أي كتابة الرواية، ام انه سيكف عن ارتكاب الهفوات؟

- إسلوبك في طرح السؤال طريف، ولكن متى سلك المرء درباً ليس من السهل ان يتراجع عنه. وما تعلمته من كتابة «الاخضر واليابس» هو نوع من التربية الاكاديمية لكي أكتب رؤية افضل.

خلال السنوات الثلاث الاخيرة تعلمت ما لم أتصور اني ساتعلمه وهو نظام مرصوص ويومي للكتابة.

عن نوبل ونجيب محفوظ

□«نوبل» كانت للرواية العربية وليست للشعر فما هو رأيك في هذه المسألة؟

- انا اكتب لأنني لا اعرف عملاً آخر، الجوائز لا تهمني.

□رأيك بمنح الجائزة؟

- اعتقد ان منح جائزة نوبل لنجيب محفوظ كانت عملية تنفيس سياسية من قبل لجنة نوبل واستجابة للحاجة العربية حول منح الجائزة لعربي.

اعتقد ان نجيب محفوظ كاتب روائي عادي من القرن التاسع عشر، روايته بالقياس الى ما كتب في القرن العشرين من روايات تبقى ضمن مجال القرن التاسع عشر.

اما ما كتب من شعر في العالم العربي خلال الخمسين سنة الاخيرة وخاصة ما كتبه محمود درويش فيستحق الجائزة، ولو كنت في لجنة نوبل لمنحته إياها دون تردد.

يتحدث الى الزميل لامع الحر

حوار: لامع الحر

"الاخضر واليابس" روايته عن حريق لبنان

جاد الحاج من اوستراليا: هه... الثورة، أي حلم ضائع

الحل الوحيد لمشكلتنا هو العودة الى القيم الزراعية الجبلية

الشاعر الجوالة، جوّاب الآفاق، المسافر، المهاجر باستمرار تغجّري: جاد الحاج. حطت به الرحال في ملبورن، اوستراليا منذ سنتين. بعد عشر سنين من التنقل بين لندن، باريس واثنيا، وبعد اسفار ما تركت قارة من "شرّها". تاريخه اربع مجموعات شعرية ومئات المقالات والقصص، وعمل في مختلف حقول الاعلام في الخارج والداخل. على جلدة مجموعته "٢٦ قصيدة" الصادرة عام ١٩٧٩ في بيروت عن "دار النهار للنشر" كتب يوسف الخال: "كم مرة ظننا ان جاد الحاج انصرف عن الشعر الى اي شيء آخر، فكان يخدعنا ولا يخدع نفسه".

● ... لكنك يا جاد انصرفت عن الشعر الى الرواية كما يبدو، ويوسف الخال رحل وكنت تحبه فلم نسمع صوتك في وداعه.

– في آخر رسالة كتبها لي كان خطه مفشكلا، خطه السلس الجميل، تخربش. كان نظره شحّ. الا ان محبته لم تخفت ولا لحظة. وبسبب هذه المحبة الطاغية والجارفة ما استطعت التجاوب مع تلقائيتي. ما قدرت الجلوس الى ورقة والنواح عليه. بل قررت ان اجمع ما كتبته باللغة العربية الحديثة كما رآها يوسف، لنشر المجموعة في ذكرى مرور عام على رحيله. اعتقد هكذا افضل. اما قولك اني انصرفت عن الشعر الى الرواية ففيه تلك المماجحة الراقصة: نعم ولا. مع اني لا احبها كثيراً، بل افضل ان يكون كلامي نعم نعم، او لا لا... كتبت بعض القصائد خلال الاعوام الثلاثة الفائتة بعد صدور "واحد من هؤلاء". غير اني فقدت، في الاربعين، حمّى النشر التي لازمتني منذ السادسة عشرة. واصبحت اؤثر التريّث في النشر وترك السطور تختمر على مهل. فالزمن النرجسي اخذ مداه. والان جاء وقت الانكفاء قليلا والتوقف عن "النطنطة" كيفما اتفق.

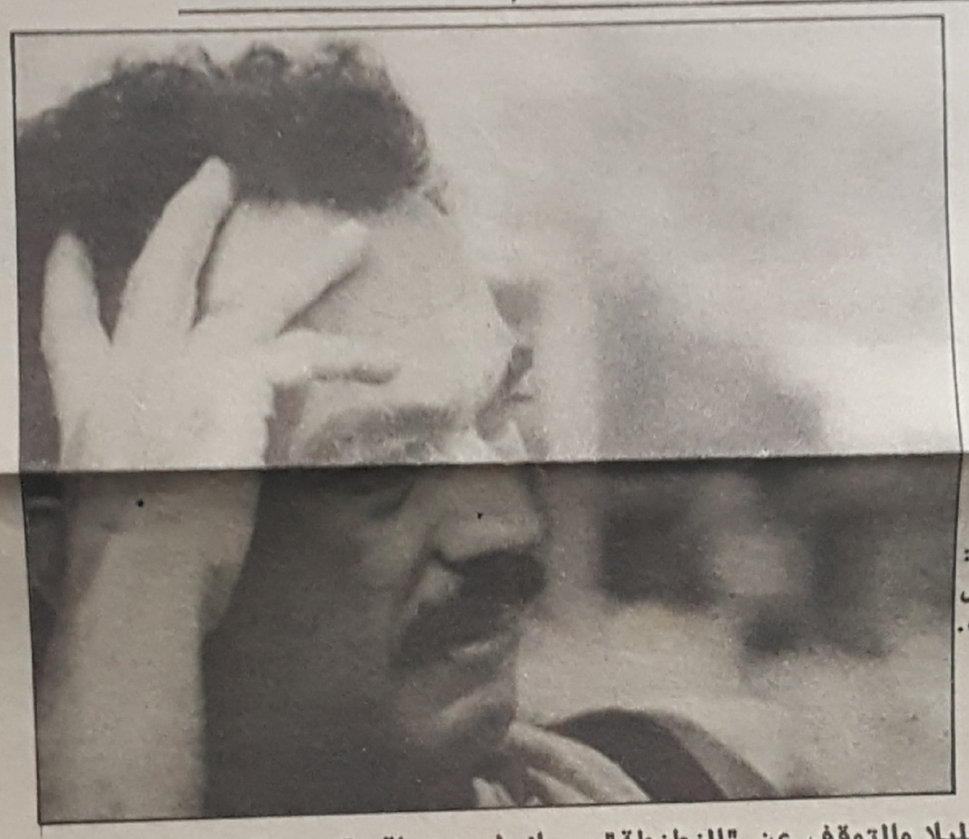

جاد الحاج: بيروت الخدش في الاسطوانة.

"الاخضر واليابس"

● يعني عقلت؟

– بل قررت ان احسم المسألة بيني وبين الكتابة. في البداية كان الامر غراماً نزقاً، فيه كرّ وفرّ، وجد وفراق، تجارب ومحاولات، بعضها نجح الى حد ما وبعضها الاخر مجرد تهويمات خارج المدار العام مثلما يفعل الاولاد عادة للفت الانظار، يفقعون بالوناً او يكسرون منفضة. لكن لهذه الحال نهاية. في آخر العرض يرى المهرّج وجهه في المرآة فيكاد يبكي. لذا اعتزلت وانعزلت وقعدت اكتب هذه الرواية.

● عنوانها، قصتها، موضوعها؟

– "الاخضر واليابس" هذا الذي احترق في بلدي. وقصتها ثلاثة اجزاء: الاول مداره القرية اللبنانية كوحدة زراعية اقتصادية، وبؤرة اختمار وتطوّر لاسلوب حياة وقيم. تلك الحضارة التي قال عنها انيس فريحة انها في طريق الزوال، تلقت في نظري الضربة القاضية مع دخول الحرب اليها. وتبدأ روايتي في قرية نموذجية من حيث عيشها الهارموني، كيف تتخلخل موازينها وتنقلب قيمها وتسقط فريسة التفكك والكراهية. في الجزء الثاني، يوميات التململ الاقتصادي والضياع الانساني التي يعيشها المهجرون والنازحون. خصوصاً في السنوات الاولى للحرب حيث كان التغاير مفاجئاً بين يوم وآخر. وفي الجزء الثالث دخول الى مؤسسة الحرب، الى المعاناة المباشرة للخطف والقتل والعبث الدموي الرهيب الذي لا اعتقد عرف العالم مثيلا له في التاريخ الحديث. ففي اي مكان، اخبريني، يجري شيء بالغ الجنون والبله مثل القصف العشوائي؟ تلك باختصار هي الخطوط العريضة لهذه الرواية، التي استغرقت سبع سنوات من العمل على دفعات، كان آخرها الانكباب يومياً ودون انقطاع سنتين كاملتين، حتى انهيتها.

● وهل ستنشرها في بيروت؟

– سانشرها حيثما استطيع. بيروت تبدو ابعد مكان في العالم وهي تحت جفني. لا شيء يؤلم اكثر من ذلك. هناك كاتب روسي نسيت اسمه الآن يقول ان الهجرة كذهاب المرء الى ماتمه. وكفافي يقول في قصيدة "المدينة" اننا لا نغادر تلك المدينة ابدا حيثما ذهبنا... بيروت كلمة لا احب ترديدها كثيرا. انها المكان المخدوش من اسطوانة حياتي. فلنغيّر الموضوع.

● لا. بل لماذا تنفعل هكذا عندما يأتي موضوع البلد..

– لأن الكلام في هذا الاتجاه فالصو.

● لا امل لديك؟

– هناك "امل" والكتائب والحزب التقدمي و"حزب الله"... يمكننا ان نضحك ونبكي هكذا طول النهار.

عاشت اوستراليا!

● هل انت سعيد في اوستراليا؟

– جدا. عاشت اوستراليا! من يومين ذهبنا الى حفلة اقامتها احدى العائلات اللبنانية الكبيرة هنا في ملبورن. حفلة طقش وفقش وحمص بطحينة. طبعاً تخللت الحفلة، بين وصلات الغناء البلدي والعزف المنفرد، خطابات. ومعظمها جهوري من النوع الميكروفوني الجبّار. غير ان شاباً قال كلمة اعجبتني. قال علينا ان نشكر اوستراليا لانها احتضنتنا وردت الينا الاعتبار الانساني. "ففي بلادنا القيمة الاقل شاناً هي الانسان وهنا العكس تماماً". طبعاً لم يصفقوا له بقدر ما صفقوا للذي تحدث عن خلود الارز واختراع الابجدية. لكن ماشي الحال.

● يبدو ان سخريتك بلغت نقطة اللارجوع. الست فخوراً بلبنانيتك؟

– كلا. ولا اعرف كيف يمكن الانسان ان يفتخر لمجرد ولادته هنا او هناك، في هذا او ذاك الوطن، هكذا بصورة مجانية، مطلقة. "انا لبناني اذن انا عظيم" مقولة لم تعد مسلية. فاللبناني جائع، وداشر، ومفكك ومهزوم وحالته بالويل. مع ذلك اراه ما زال يغنّي للسماء الزرقاء والعصافير وفقش الموج ومسائل من نوع بطاقات البريد البائدة. فليفتخر من يستطيعون احتمال كل هذا الرعب والتعتير. مبروك عليهم. اما انا فاني مليء بالحقد والغضب والنقمة. واذا وجدت نفسي في لبنان الآن، بسحر ساحر، فسانتزع اول بندقية واهجم على اول "امير حرب"، اول مجرم مسلّح ممن اوصلوا بلدي الى قعر الهاوية. بعدئذ،

←

ميتاً او حياً، يمكن ان نتحدث عن الفخر اذا ارضت.

هه... الثورة

● تتحدث عن الثورة او مجرد التمرد الشخصي؟

– هه... الثورة، اي حلم ضائع. في الفيليبين عندهم ثورة. في كوريا الجنوبية ثورة. حتى في بناما ثاروا. لا اعتقد بقي ناس في الدنيا ما عرفوا تجربة الثورة الا نحن. من هذه الناحية وضعنا فريد ومميز. فنحن لا نثور كشعب بل كزواريب... "ثورة الزواريب" عنوان معقول لواقع حالنا. الشعوب عندها اولويات بسيطة. حتى اقل الشعوب ثقافة وحضارة وتمدناً. نحن بلا اولويات. نحن زعماؤنا اقطاعيون يتوارثون مقدراتنا مثل الملوك والامراء وحتى يكونوا على الموضة – هم لا نحن – هذا يسمي حاله يميناً وذاك يساراً مثلما يرتدون البزات وربطات العنق، بينما هم في الداخل ما زالوا في عصور ما قبل الثياب. والكارثة ان الناس تستمع اليهم وتتبعهم وتصفق لهم وتموت بالالاف من اجل بقائهم.

● الا تعتقد ان الثورة اللبنانية ممكنة؟

– كيف؟ تتصورين جوزف ومحمد ومعروف وعلي اجمعوا على ان عندهم وطناً واحداً وارضاً واحدة ومصيراً واحداً وما تبقى حكي بلا طعمة، فوضعوا يداً واحدة على بندقية واحدة وساروا الى زعمائهم فاتكين بهم، رافعين فوق كل قمة بيرقاً واحداً؟ صعبة مع الاسف الشديد. فهذا النوع من الاولويات البسيطة غائب عن واقعنا. عندنا الوطن طائفة، مصلحة، ظرف استثماري، مازق وجود، اي شيء الا وحدة الكيان والمصير.

● هل تتحدث عن هذه الامور في روايتك؟

– بالطبع. ولكن من ضمن القصة. في بعض المراحل انجرفت. سخن رأسي. فجعلت البطل يحلم بالثورة ويخطط لها ويقوم بها، ولو خلال المنام لكني عدت حذفت كل هذه الاسقاطات الشخصية لان بطل قصتي اقل عنفا مني. طبيعي اكثر. وهو كالشاشة يتلقى الانعكاسات الساطعة عليه تواقا باستمرار الى بياضه الاصلي.

طائفة الاصالة القروية

● هل اخترت بطلك من طائفة معينة؟

– نعم ولا مرة اخرى! فانا اعتقد ان في لبنان طائفة حقيقية وصحية واحدة هي طائفة الاصالة القروية. وانا مؤمن بان الحل الوحيد لمشكلتنا يكمن في العودة الى القيم الزراعية الجبلية. واظن ان ملامح الشخصية اللبنانية موجودة في المجتمع الزراعي وحده، اما السواحل فهي مشرقة وبلا وجه. ولذلك جعلت بطلي ابن قرية صغيرة جداً، منسية وغير موجودة على خريطة السياسة والطوائف. واردت من خلال ذلك تصوير الثوابت اللبنانية الاصيلة في مقابل بركان الجنون الذي لا يزال مشتعلاً. وفي اعتقادي الشخصي ان مسيحية اللبناني متأثرة جداً بالاسلام واسلام اللبناني، في الجبل خصوصاً، متأثراً جدا بالمسيحية. لدينا الامثال والتقاليد واساليب التعامل والاحتفالات ومفاهيم القيم الانسانية كلها متطابقة. ولو قيض لي ان افصل في امر الكارثة لاعترفت بان الطوائف موجودة، لكن الطائفية جريمة محرّمة عقابها الموت لانها قاتلة لبنان لا محالة. وفي رأيي ان الحل الوحيد هو تعليم الكتب السماوية – كلها – في المدارس للجميع قسراً. لان الجهل هو مصدر التعصب، فمتى فهمنا رسالة الانبياء، ظروفها، اوجه التشابه بينها، واوجه الاختلاف، فهماً علمياً باردا لا يعود الدين عندنا مصدر موت وبؤس وشقاء وعزلة، بل نبراس وتجربة حضارية ولا اغنى.

● الى متى تعتقد ستبقى مهاجراً؟

– الى ان تسنح الظروف، اما لقيام ثورة شعبية فاترك كل شيء – نعم كل شيء: الكتابة والعائلة والهدوء واذهب للمشاركة فيها. او تحدث معجزة فيستفيق اللبنانيون ذات يوم ويرون وجه ربهم فيلقون بادوات الموت جانباً. اما والبلد على حاله...

● لن ترجع؟

– بالعكس. تعرفين ماذا اتخيل احياناً؟ اتخيل ان الناس كلها قررت الخروج. تاركة المسلحين وجهاً لوجه وحدهم بدون ذخيرة بشرية للتمترس خلفها واستعمالها في مفخخاتهم وقصفهم الجبان. اراهنك انهم لن يتقاتلوا عندئذ.

شعور فاجع

● الا تشعر بحاجة الى الاتصال بواقع البلد؟ بما يجري فعلا على الساحة؟

– انا على اتصال دائم. بل ان اتصالي اقوى من تواصل الموجودين في الداخل. لان خطوطي واضحة. انني اسمع البلد ككل واراه ككل باستمرار. ولا اسمح لمنطقة فيه ان تسيطر على منطقة اخرى في اتصالي به. من الجنوب الى الشمال كل البلد موجود امامي عبر الاخبار والناس. والصراحة ان الصورة بدأت تنكشف في الشهرين الاخيرين. لدي شعور فاجع بان البلد مقبل على انهيار اخير وحاسم...

● هل تعتقد الادب يمكن ان يلعب دور انقاذ، في اي مرحلة من المراحل؟

– كلا... لا شيء ينفع سوى القيادة السياسية المستنيرة والشجاعة. وهذه غير متوافرة في الوقت الحاضر لدى اي من الاطراف. اما الفن والادب فاما ياتيان قبل او بعد المعركة. وفي ظرفنا يمكن القول انهما جاءا قبل. ففي الستينات والسبعينات كانت الحركة الفكرية في لبنان على قدر من المعاصرة والطليعية يعادل، بل ويسبق من حيث التنوع والخصب، اوروبا بلا مبالغة وكان كل الفكر المطروح في خميرته الاخيرة يدعو الى ضرب الاقطاعية والطائفية وتثوير الحياة. مع ذلك الدم ايقظ التشنجات السلفية. وكل ما تعلمناه وحلمنا به وتأملنا حدوثه كانه لم يكن. والآن حتى لو انتهت الحرب لا اعتقد ان الابداع الفكري والفني وحده يستطيع دحرجة الحجر وتسبيب القيامة، بل نحن بحاجة تسوّلية الى قائد يعيدنا الى لبنان ويعيد لبنان الينا.

مسؤولية الشهادة

● لماذا توخيت الرواية كاطار تعبيري، الشعر لا يفيد ام تعتبر انك اخفقت شعرياً في ايصال مرادك؟

– ربما اخفقت شعريا، لا ادري. ليس من السهل نقدياً وموضوعياً تحديد امر كهذا في الوقت الحاضر. لكن مما لا شك فيه ان الرواية ارحب من الشعر في المجال الآتني والاخباري. والشعر بصورته الاختزالية التي وصلنا اليها بات، حكماً، من ضمن الاشكال النخبوية في التعبير. وصوله مثل محطات الـ"أف.ام." مقصود، دقيق ومحدد. مع انه بالنسبة الى كاتبه منتهى المتعة والاكتفاء. غير ان للكاتب حاجات اخرى بجانب النشوة الذاتية. هناك مسؤولية الشهادة لزمن معين. ومع اني لا اتصور انحرافاً بنسبة ١٨٠ درجة في مساري التعبيري من الشعر الى النثر. لدي، امامي، مشاريع كتب نثرية جاهزة تقريباً تكدست عبر سنوات السفر والعمل في الصحافة. منها القصص القصيرة والروايات وبعض النصوص المسرحية واربع مجلدات تحتوي اسفاراً... كلها تنتظر التفرّغ والتوضيب. بينما على صعيد الشعر ليس لدي اكثر من عشرين قصيدة غير منشورة ومجموعة باللغة العربية الحديثة، كما اسلفت، تثبت على فترات تعود اولاها الى ١٩٦٥..

● بالنسبة الى اللغة، اي لغة استعملت في روايتك؟ وما هو موقفك من قضية اللغة عموما؟

– كانت قناعتي دائماً ان الموضوع يفرض لغته دائماً. وذلك كان النقاش بيني وبين يوسف الخال وموريس عواد وسابقاً مع سعيد عقل وميّ مر. فانا لا اؤمن بالتنظير الفوقي في الفن. بل اعتقد ان النظرية تتكون بعد التجربة. ووضعها قبلها بلا فائدة على الاطلاق. وفي قضية اللغة العربية رأيي ان نكتب كما نستطيع. لكن المهم، بقوة الحقيقة، ان بالدارج او بالفصيح. على طريقة يوسف الخال او طريقة سعيد عقل، كلها مسائل ثانوية امام ما نقوله، فاذا قلنا كلاماً خارقاً ولو بالسريانية اضمن لك وصوله الى كل لغة في العالم دون اي مشكلة. اما في روايتي فاعتمدت اسلوباً لغوياً موحداً وعنيت بما اعتبره رسالة الادب اللبناني في المشرق العربي: حقن اللغة العربية بمصل الحياة. لذا اجهدت نفسي للربط بين الدارج والفصيح واحلال روح المحكية في الجسم المكتوب. وفي ظني، كناقد، ان الرواية لو فشلت من كل النواحي سوف لن تفشل في هذه الناحية. فنحن في كلامنا الدارج غير بعيدين عن الفصحى. لدينا الكثير من المفردات غير الموجودة في القاموس، نعم، لكن كيف تشكل القاموس؟ من اين اتى بمفرداته؟ وكيف للقاموس ان يستوعب مفردات جديدة ان لم ننقلها اليه عبر نقل الحياة؟ مع هذا ينبغي ان نعمل اكثر ونتجرأ اكثر على تليين القواعد وقولبة الصرف والنحو. ولكن عبر الكتابة نفسها، لا التنظير ولا التسييس ولا الربط بين اللغة وبين اي "تابو" آخر.

روعة

● لم تقل لي لماذا تحب اوستراليا؟

لاسباب كثيرة، في طليعتها انها على المقلب الثاني من الارض، بعيدة عن كل المطاحن الدموية الدائرة في الشرق الاوسط واوروبا وافريقيا، وبعيدة ايضا عن اميركا الى حد ما. صحيح انها تشبه اميركا في الخمسينات من حيث النمو وحال المراهقة الاقتصادية، لكن العالم اليوم مختلف عنه في الخمسينات والاوستراليون مشركون لنعمة كونهم ١٥ مليوناً على قارة مساحتها تستوعب اوروبا كلها وتزيد. روعة، المساحة الخالية. مئات الاميال من الشجر والعشب والحيوانات والافق النقي. في اميركا، العالم الفائت، تقززت نفسي من الحشد البشري والمادي. من البشر فوق البشر كانهم

في صحاصير. ومن جفاف الحضارة المادية وعدائيتها. وفي اوروبا خلال السنين العشر الفائتة تلوّعت من الطقس والنكح الاستعماري. اضافة الى التمييز العنصري الضارب اطنابه، ضدنا بشكل خاص. اليونان وحدها احفظ لها في قلبي حنيناً مميزاً، لانها تشبه لبنانا فائزاً وقوياً. وجوهها مثل وجوهنا والمتوسط فيها نظيف ومضياف. ربما اعود يوماً الى اليونان. لكن هناك امكنة اخرى احب زيارتها لفترات طويلة مثل اميركا اللاتينية والصين والتيبيت. العالم كبير وصغير في آن. لكن حياتنا قلما تكفي لمعرفته. على الواحد ان يحاول بأي حال. وفي اوستراليا، للمرة الاولى في حياتي، قادر على الانصراف الى عملي دون اللهاث وراء لقمة العيش. نعم، هنا في امكاني ان اتفرّغ للتاليف. والامكانات مفتوحة للترجمة والنشر. الكاتب هنا انسان عامل. امامه معترك واضح للمنافسة والتعبير عن النفس. ومن لديه ما يضيف لا يدفشه جانباً ولا يطلق عليه النار في سريره او في الطريق احد. لذلك احب اوستراليا ولأن الببغاوات الملونة تحط في حديقتي كل صباح.

● **هل لديك امنية قصوى لم تحققها؟**

– امنيتي الوحيدة هي نفسها منذ اردت ان اصبح كاتباً وانا في الثانية عشرة: ان ابني بيتاً في قيتولي، قريتي، اشيخ واموت فيه.

شادية جدعون

ملبورن

رواية

الاخضر كيف كنا والياس كيف صرنا

حنان الشيخ، التي نقلت روايتها عن الحرب "حكاية زهرة" الى الفرنسية والانكليزية ودخلت في منشورات كتاب الجيب في الولايات المتحدة وبريطانيا، قرأت رواية حاد الحاج "الاخضر واليابس" المستوحاة من الحرب ايضا، وكتبت الكلمة الآتية:

انصور الحيرة والصعوبة اللتين واجهتا حاد الحاج وهو يكتب "الاخضر واليابس". الحرب امام عينيه مسارح العنف والجنون تحت ناقلته. مع ذلك تنفتح له الفاريديا التي كانها لبنان قد وعيناه.

يمتلئ الموضوع اشبه بفقاعة تكبر وتكبر متحولة الى جدران، فظاعة جديد. كيف له ان يلخص العنف ويرسم تمثّل معالم وطنه، انسانيا جغرافيا واقتصاديا شرط ان تاتي النتيجة في مستوى الشقاء والدماء؟ ليست عادية، وفي الوقت نفسه ليست كمغامرات الشاطر حسن.

خرق حاد الحاج ظابة الحديد واقفا والحرب وجها لوجه. عرف ان عليه القبض على المحال كي يكتب عن "الاخضر واليابس". اراد ان يؤدي واجبه تجاه حبه لوطنه، ربما ليكفّ عن الهدس به وبما يحدث لعاقيته. وربما شاء تخطيه كي يخلق لنفسه حياة جديدة. فكان عليه ان يغوص ويغوص كانه ارتكب خطيئة من غير ان يدري، ويحاول استرجاع ما حصل لحظة لحظة. احتاج الى الصبر فوجده، الى الذاكرة فكانت طوعه، لانه ما زال يعيش مثل بطله آدم مع هنيبعل وارتحشتا والحروب العالمية والمجاعة في لبنان... ومنظر الفيلة ودمائها على الثلج... آدم ضد الحروب كلها فكيف يفعل والحرب وصلت الى قريته "وهدة"؟ شبابها تسلحوا للدفاع عنها كما اوهمهم الضابط الشاب على راسهم ابن المختار. اما الدكتور ابو فاعور فرفض ان يفتح دكانه للاوباش شاعرا بان الحياة تتبدل في القرية الآمنة المطلة على الكون.

خاف حاد الحاج بين القصف والتهجير والجبل الذي انشق العجائز إما يموتون قهرا او يشحنون كالمتاع مع اولادهم. احفادهم يتعلمون الحرب والطائفية وغريزة البقاء. هذا إن لم يهاجروا حاملين ملامح وطن يحترق وخاف ان يضيع تاريخ الضيعة واطياف العقلاء والناس الطيبين. الا يعود صياح الديك والندى على الاغصان، والا يعود المكبس والزغل والتباغير واللقايات والحجش ورص الزيتون والمعصرة.

وتخوض الحرب مع بطله آدم... حتى زوجته تنتقده على حمله السلّم بالعرض ولا يشكر ربه لانه مستور. فيجيبها "عال! شكرا لك يا الله لانك جعلت غيري قاتلا او مقتولا ساحلا او مسحولا قاطعا او مقطعا ووفرتني حتى الآن انك لعليم قدير".

وآدم آخ، ابن جبران، زميل في المكتب - اقفل البنك حيث يعمل اقفلت ابواب مدرسة زوجته وابواب مدرسة ابنته الحالمة بالسوبرمان. قصفت قريته بالصدفة ودخل شبابها في الحرب مصادفة ايضا. مات الحكيم بقذيفة طائشة وروبا روبا نكتشف كيف ان عقلية الحرب ارتفعت على انقاض مصادفات من هذا النوع.

دخلنا مع آدم في تفاصيل الحرب الى احتراق مناطق وعمران اخرى الى الملجأ بعدما ترك بيته وماضيه ونفسه في قريته نازحا نحو غربة الداخل في نزوحه تصوير للعائلة اللبنانية، تلك الجوهرة التي اصابتها الحرب في الصميم فارسلتها شظايا على وطأة العنف والتشريد.

وفي الجزء الثالث من الرواية، تلج مع آدم الى اقبية التعذيب، الى الشطف والجنون والعيث الدموي لتكتشف ان الحرب مؤسسة وانه لا مفر للذين يتورعون عن التورط فيها من السفر في تلك البواخر المهاجرة كما من زمان بشرق واحد. ان بين المودعين والمسافرين كانت تنتشر شرائط الورق الملونة والبوالين وتتدلى كانها مصران الحياة يربطهم بعضهم ببعض. الذين يقفون على اليابسة يشخصون الى المسافرين. يرفعون ايديهم بالاشارات والتحية والمناديل البيض. يعرفون ان من على الباخرة سيرسلون في ظلمهم، سينشلونهم من الفقر. بينما يشعر المسافر الان بانه خائن، والمودّع على اليابسة بانه ترك مع كسرة خبز.

ليست هذه الكلمة نقدا او عرضا لرواية "الاخضر واليابس" انها مجرّد تنويه ولفتة الى النقاد، لكن خصوصا دعوة الى الناشرين لطبعها وتوزيعها في العالم العربي لان مؤلفها طبعها على نفقته ووزعها في شكل محدود من سيدني، اوستراليا. فلم تصل منها سوى نسخ قليلة الى اصدقائه هنا وهناك.

حنان الشيخ

"الاخضر واليابس" يشعل عود الثقاب في اوستراليا

في السادس من آذار الفائت دعا قسم دراسات الشرق الاوسط في جامعة ملبورن الى توقيع رواية "الاخضر واليابس" لجاد الحاج. وهنا بعض ما جاء في الندوة كما نقله احد الذين حضروها:

قنصل لبنان العام مصطفى مصطفى.

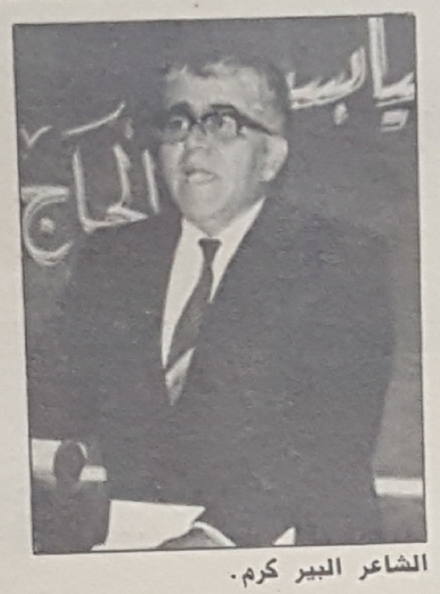
الشاعر البير كرم.

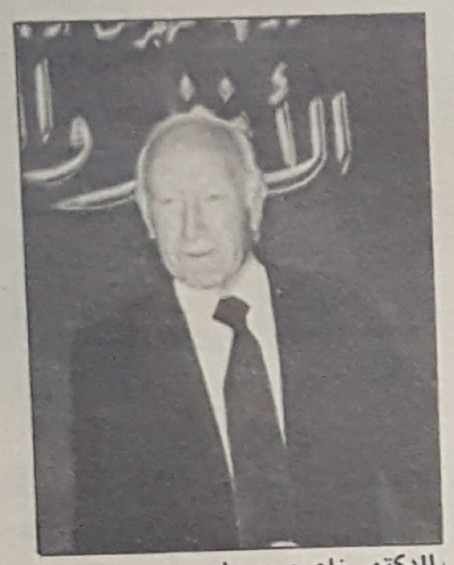
الدكتور ناصح ميرزا.

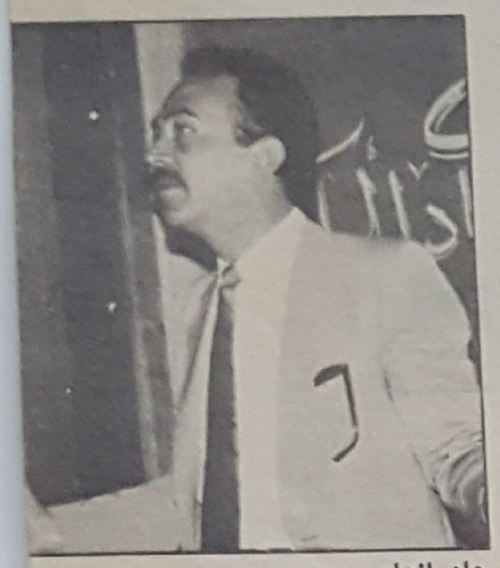
جاد الحاج.

صحيح نشر شعراء العربية في سيدني وملبورن قصائد ودواوين، كما نشر غيرهم قصصا وبحوثا اجتماعية وادبية، الا ان اوستراليا العربية لم تشهد حتى صدور "الاخضر واليابس" وفود اديب لبناني معروف في بلاده والعالم العربي لينشر بعد عامين على وصوله، اكثر نتاجه نضجا وافضله تعبيرا. تلك حادثة جديدة من شأنها ان تعيد الى الاذهان بزوغ ادب النهضة المهجري الذي اضاف دفقا حيويا على مسيرة الابداع العربي في المنعطف المنصرم للقرن العشرين. كان الادب المهجري المذكور محصلة ضيق في الوطن ولقاء غير منتظر او متوقع مع الحضارة. فبينما كان لبنان يتململ بألم وجوع وتخبط من براثن الامبراطورية العثمانية، راح جيل من ادبائه ومبدعيه يكتب ويرسم معالم نهضة ثقافية واجتماعية دبّت حيويتها في جسم العالم العربي على حقبات لم تنته فصولا بعد. ولبنان اليوم في ألم وجوع وتخبط، نصف ناسه خارجه ونصف الذين في الداخل تواقون الى الرحيل. ربما لا يكون ظهور رواية بانورامية شاملة عن حرب لبنان في اوستراليا سوى مصادفة بسيطة، عارضة، وعرضية، غير ان الصورة معكوسة على الواقع الاوسترالي للجالية توحي لنا أن نشوء وتطور ادب مهجري جديد، طليعي وخلّاق، لن يكون بعد الآن مجرد سراب غربوي مصدره البعد والحنين.

احدثت هذه الرواية رعشة في المهجر الاوسترالي. كان انتاجها صعبا لكن موجة التقدير التي رافقتها وصل رذاذها الى كسر الجليد بين تجاوب السلطات الرسمية والابداع العربي في اوستراليا، اذ منح المجلس الاعلى للثقافة والفنون ناشر "الاخضر واليابس" اول مكافأة لأي عمل ادبي باللغة العربية. كذلك غطت شبكة تلفزيون "أس.بي.أس" خبر صدور الكتاب في نشرة انبائها الرئيسية مع مقابلة مع المؤلف وعرض موجز للرواية.

وخلال توزيع جائزة جبران الممنوحة من "رابطة احياء التراث العربي" جرى الاحتفال الاول بتوقيع وتقديم "الاخضر واليابس" برعاية سفير لبنان في اوستراليا لطيف ابو الحسن. ثم دعا رئيس قسم دراسات الشرق الاوسط في جامعة ملبورن الدكتور عبد القادر قاضي الى ندوة لمناقشة الكتاب، القى الكلمة الرئيسية فيها قنصل لبنان العام في ملبورن مصطفى مصطفى. ومما قاله: "ان بلداً هاجر او هُجِّر السلام عنه لا شك فالهناءة فيه منحلّة وشواهد الحال تزهو بالاضمحلال، الا انه طالما هناك في بعض النفوس من الاصالة بقايا، وطالما شعلة الامل باقية بل ان وميضها مشّاء الى الشمول، فسواد الخلق في الوطن آدم وراجي عواد، وفتاته في المصير مالك سعيد"، مشيرا الى ابرز شخصيات الرواية.

"فاجأتني هذه الدعوة مفاجأة كبيرة" قال الشاعر البير كرم "لأنني منذ بداية احداث لبنان لم ادع مرة واحدة الى محفل ادبي بل كانت كل الدعوات الى حفل طرب ودبكة وغناء. اما عمل جاد الحاج فأقل ما يقال فيه انه بداية ثورة ادبية تحكي بساطة القلب اللبناني الصامد برغم الاحداث". ومما جاء في قصيدة البير كرم: "يا موطن المجد هل ما زلت تنتحر/ تركت ارضك والآمال تدفعني/ لأن اعود قريبا فيك أفتخر/ (...) قد كنت أبكي بلادي حين أشهدها/ العوبة الغدر فيمن خانوا أو غدروا...

ومن الكرسي الاكاديمي صعد الى المنصة الدكتور ناصح ميرزا أستاذ اللغة العربية في الجامعة والقنصل الفخري لسوريا، فروى كيف قرأ "الاخضر واليابس" خلال اسبوعين في القطار ذهابا وإيابا بين بيته والجامعة، وكيف كان الكتاب ينسيه المحطات ويذهب الى آخر الخط ويعود، تارة يحدث نفسه، يضحك، او يكاد يبكي.

ثم تناول الدكتور ميرزا الرواية بالتحليل معربا عن اعجابه بشخصياتها وسياقها وطاقتها التصويرية. كما طالب المؤلف بوضع مقدمة تشرح الظرف التاريخي والموقع الجغرافي وأحوال البيئة تسهيلا لافهام القارىء خصوصا في الاجيال المقبلة.

وكان من ضمن ما قاله الصحافي الجريء والظريف رودولف ابو خاطر الذي اضاف بهارات زحلية على الندوة: "بالرغم من ان جاد الحاج لغاية في نفسه لم يبيّن لنا العلة الرئيسية التي اشعلت النيران فأتت على الاخضر واليابس، الا انه قدّم اكبر خدمة لهذه الجالية الحزينة فانتشلها من تجارة "الميلك بار" واوجد لها المركز اللائق، فقادها الى حيث كان جبران وميخائيل نعيمة وامين الريحاني في اميركا والمعالفة في البرازيل وآل تقلا والجميّل وزيدان وصرّوف في مصر".

وفي كلمة عاطفية وصوت طفيف كالهمس تحدثت الصحافية نجاة مرسي من حيث الاحداث والشخصيات فاعتبرت "ان الكتاب عرض شيّق وذكي لخلفيات شعب الف بساطة العيش والمشاركة الوجدانية، محاطا بسحر جباله، وجمال طبيعة ارضه، وتقاليده، تعوّد القناعة والاستسلام لرتابة العيش وفضيلة التعايش في قراه الحالمة، وفجأة تنقلب من حوله الموازين بسرعة لا تتناسب مع طبيعته. ويجد نفسه محاطا بدعاة الطائفية، وحملة البنادق، وتجار الحروب، مضافا الى ذلك ان مجرد التمسك بالقيم الاخلاقية والانسانية، وسط هذه الغابة سوف يضعه، على حد قول الكاتب امام خيار عنيف: الموت او القتل. وهذه هي المسألة".

وكان واضحا ان الدكتور عبد القادر قاضي، صاحب الدعوة، بالغ السرور للمناسبة الادبية لانها الاولى من نوعها منذ تأسيس قسم دراسات الشرق الاوسط ولأن فيها دفعة معنوية من شأنها تمتين جدوى ذلك القسم خصوصا بعدما رشح من الاوساط الجامعية بأنه مهدد بالالغاء. كما كان الدكتور قاضي مرحبا بالحضور داعيا الى المزيد من الانتاج الادبي دون ان يغفل ايضا مقارنة اليوم بالامس: "ارجو ان يكون هذا الكتاب بداية سلسلة المؤلفات العربية والدواوين الادبية والعلمية في اوستراليا مثلما عهدناها لدى الجالية العربية في اميركا".

اما عريف الندوة راسم الباشا فاستعار في تقديمه المتكلمين فقرات من "الاخضر واليابس" تمهيدا للفصل بينهم وتوطئة لربط مداولاتهم بالموضوع المطروح مما جعل مهمته حلقة ادبية بحالها.

في هذه الاثناء تشهد مدن اوستراليا الرئيسية اقبالا منقطع النظير من الفنانين اللبنانيين بشكل خاص فلا تخلو أمسية من دون حفلة ولا يمر اسبوع بلا اسم جديد على اليافطات المضيئة.

ملبورن - اوستراليا

آلن الكوتريب